الخطط والبرامج

لا بد للدعوة من « استراتيجية » ؛ أي خطةٍ عامةٍ ثابتةٍ ، ولا بد من خطة « تكتيكية » ؛ أي برنامجٍ مَرْحَلِيٍّ قابلٍ للتغيير ، وأظن أن معظم الحركات الإسلامية المعاصرة تفتقر إلى ذلك ؛ إلا ما سنذكره عن علماء القارة الهندية .. أي : الديوبنديون ، وجماعةِ التبليغ ؛ فإنَّ كلًا من هذين الجناحين وضع لنفسه خطةً عامةً « استراتيجية » وحافَظَ عليها ؛ فالديوبنديون اعتمدوا نَشْرَ العلم مع التربية ، وأنشأوا لذلك المدارسَ ، وجماعةُ التبليغ بعكسهم ؛ لم يُعوِّلوا كثيرًا على نَشْرِ العلم ، وبدلًا من ذلك اعتمدوا الوَعْظَ والخروجَ للدعوة .

ومع اختلاف « الاستراتيجيتين » فإنهما سَجَّلَا نجاحًا باهرًا ، وحقَّق كلٌّ منهما انتشارًا كبيرًا ؛ ليس لصحة الخطة أو عدم صحتها ؛ ولكن لأنَّ كلًّا من الحركتين حافَظَ على « استراتيجيته » بدَأَبٍ بالغٍ ، وسخَّرَ لتنفيذها البرامج الناجحة .

ولا أملك تأجيل القول بأن خطة « الديوبنديين » هي الصواب ؛ فإنهم طبقوا منهجَ النبي ﷺ ومنهجَ أصحابه ؛ الذين كانوا يقولون : « كنا إذا نزلَتْ عشرُ آياتٍ لم نجاوزهنَّ حتى نعلمَ ما فيهن من العلمِ والعملِ ؛ فتلقَّيْنَا القرآنَ والعلمَ والعملَ معًا » .

وكان الصحابة ﷺ يحرصون على حلقات العلم التي كان يعقدها النبيُّ ﷺ في مسجده ، حتى كان عمر بن الخطاب ﷺ يتناوب مع جارٍ له أنصاريٍ حضورَ هذا الدرس إذا كان بحائطه بالعوالي فمن حضر منهما يخبر صاحبَه بما سمع من رسول الله ﷺ ؛ وكان أيُّ أحدٍ من

العرب يُسْلِمُ يعلِّمُهُ النبيُّ ﷺ القرآنَ والشرائعَ ، وكان الأعرابي يأتي إليه فيقول عَلِّمْني من القرآن ؛ فيُعلِّمه النبيُّ ﷺ ..

وهذا له أمثلة كثيرة وردت بها أحاديث في الصحيحين وفي السنن وغيرها .

ولهذا قال العلماء : العِلْمُ قبل القول والعمل .

فالعلم والتعليم هما « الاستراتيجية » الكبرى للدعوة ؛ وبدون ذلك تصبح الدعوة فارغةً من المضمون ، مُجَرَّدَةً من السلاح ..

بعضُ الحركات الإسلامية في بعض البلاد العربية غَيَّرَتْ دعوتَهَا وأسلوبَهَا بدرجةٍ كبيرةٍ حادَّةٍ ، فبعد أن كانوا يعتمدون أسلوبَ العنف باسم الجهاد ، فجأة استداروا بزاويةٍ كاملةٍ ، وغلَّطُوا أنفسهم ، وتركوا ما كانوا يتصورونه جهادًا ، وتَحَوَّلُوا إلى المُسَالَمَةِ مع السلطة ؛ ربما ليتفرغوا للعلمِ ، والعودةُ إلى الصواب ليست مذمومةً ، ولكنَّ السؤالَ الذي يفرض نفسَهُ هنا ، بأيِّ خطةٍ بدأوا دعوتهم ؛ أم لم تكن عندهم خطة أصلًا ؟ إنَّ السبَبَ في مثل هذا التخبط هو أنَّ القيادات ليست مؤهلةً للقيادة ، مجموعاتٌ من الهواة محدودي الثقافة ، وبعضُ هذه الحركات كان يقودُها عقيدٌ سابق في المخابرات .

أيُّ دعوةٍ لا يقودها العلماءُ الربانيون فهي فاشلة سلفًا ؛ فمن شروط القيادة : العدالة ، والعلم .

من أمثلة غياب « الاستراتيجية » موقفُ كثيرٍ من الحركات الإسلامية ، وكثيرٍ من العلماء ؛ من الجهاد !!

بعض علماء الأمة ظلُّوا طوالَ نصف قرنٍ أو أكثر يتحدثون عن الجهاد ، ويشحذون هِمَمَ الشباب للجهاد ؛ كأنَّ نفيرَ الجهاد سينطلق اليومَ أو غدًا ؛ فلما لم ينطلق هذا النفير انطلق الشباب بعد أن نَفَدَ صبرُهم ، وانفجرت الشحنات التي زُوِّدُوا بها بلا لجام ، وفي ذلك من الخطر الشديد ما لا أحتاج إلى بيانه ؛ فالواقع يشهد به .

هل كان من الحكمة إعطاء الشباب هذه الجرعةَ الزائدةَ من التجييش للجهاد ؛ دون أن تكون هناك راية يقاتلون تحتها ، ودون أن تكون الظروف مواتيةً ، أو حتى مقاربةً ، بل هي معاديةٌ ؛ أو مُعَوِّقةٌ ؟

أَلِحُّ دائمًا وأكرِّرُ في مختلَفِ المناسبات أننا الآن في مرحلة الإعداد للجهاد ، وليس في مرحلة إشعالِ الجهاد ..

ومن أَنْشَبَ القتالَ مع الأعداء في الظروف الراهنة فإنه قد جَنَى على الأمة ؛ لأنها غيرُ مستعدةٍ ولا مُهَيَّأَةٍ لذلك ؛ فتكون النتيجة الفشل ؛ بسبب الضربات التي ستتلقاها من أعداءَ أقوياءَ متربصين .

وهذا الكلام إنما هو عن جهاد الطلب ، أما جهاد الدَّفْع فمسألةٌ أخرى ؛ وهو قَامَ في أفغانستان عند الهجوم السوفيتي سابقًا ؛ والهجوم الأمريكي لاحقًا ؛ فقتالُ الأفغان في كلتا المرحلتين دفاع عن النفس ؛ وهو قائم الآن في العراق ، وما زال قائمًا في فلسطين ، كلُّ هذا القتال في هذه المواقع جهادٌ مشروعٌ للدفاع عن النفس .

لا نتحدث عن جهاد الدفع ، إنما نقصد جهاد البدء والطلب ؛ لأنه من الأعمال السلطانية فلا يقوم إلا تحت راية إمام شرعي متبوع .

سمعتُ من الداعية الكبير الأستاذ محمد قطب حفظه الله : أن الأستاذ الإمام حسن البنا رحمه الله لما دخلت جيوشُ الدول العربيةِ فلسطين في حرب (٤٨) هاجَ شبابُ الإخوان وطالبوه بالاشتراك في الحرب ؛ وكان رأيه عدم الاشتراك فيها لسببين :

أولهما : أن هذه الحرب مؤامرة مطبوخة سلفًا أهدافها غير سليمة .

ثانيهما : أن جماعة الإخوان لا تزال في مرحلة النشأة وعودها طري فلا يحب لَفْتَ أنظار القوى العالمية المعادية لها ..

ولم يقتنع الشباب بهذا التحليل السياسي السليم ، وقالوا له : فأين شعاراتنا التي نادينا بها : الجهادُ سبيلُنَا والموتُ في سبيل الله أغلى أمانِينا .

وغلب حماسُ الشباب وفَوَرَانُهُمْ على حكمةِ الإمام ورأيه السديد ؛ وكانت النتائج فادحةً ؛ وهي معروفة .

عبد العزيز القارئ

في ٧/ ٧/ ١٤٣٠هـ